مقدمة . . . ودراسة

فى نهاية هذا الكتاب سيجد القارئ ترجمة لمقال **لكارل ماركس** بعنوان « **المسألة اليهودية** » ولكن الكتاب فى الواقع يتضمن ترجمة لأكثر من كتاب ، فهناك ترجمة **لبرونوباور** ، وأخرى **لجان بول سارتر** ، وثالثة **لسيجموند فرويد** ، ورابعة لجذاذات عن **ويل ديورانت** ، ودراسات للفيلسوف اليهودى **مارتن بوبر** ، ومقتطفات من **كفاحى لهتلر** ، ودراسات **لإسرائيل كوهين** ، **وابن هشام** ، **وابن سعد** ، **وجورج ريترفون شوينر** ، **وكارل كروجر** ، **وجوبينو** ، **وتشمبرلين** ، **ونشته** ، **ومارتن لوثر** ، **وريناب** ، **وهرتزل** ، **وبن جوريون** ، وكلها تدور حول ما يسمى **بالمسألة اليهودية** . غير أن مقال كارل ماركس يتبقى صلب الكتاب ، والمحور الذى تدور حوله بقية الترجمات ، والتى يجمعها جميعا حول موضوعه .

ومقال ماركس ترجمة عن أصل فرنسى ، للأصل الألمانى ، الجزء الأول من الأعمال الكاملة لكارل ماركس ، عن المكتبة الفلسفية لدار نشر كوست بباريس سنة ١٩٥٢ ، ومراجعة على الترجمة الإنجليزية للنص الألمانى ، نشر المكتبة الفلسفية بنيويورك سنة ١٩٥٩ بعنوان

عالم بلا يهود A World Without Jews من ترجمة داجوبيرت رونز Dagobert Runes وهو فيلسوف صهيونى ، ومؤلفاته كثيرة فى اليهوديات ، وينشر كتاب ماركس كنموذج للكتابات المعادية للسامية ، ومقدمته تطفح بالعداء لماركس ، وقد لاحظت فروقا كبيرة بين الترجمتين الفرنسية والإنجليزية ، وهناك سطور فى الترجمة الفرنسية غير موجودة فى الترجمة الإنجليزية ، وعند النقل إلى العربية حاولت أن أورد السطور الأزيد ، لكنى كنت أتمنى لو ترجمت المقال مباشرة عن الألمانية .

❄ ❄ ❄

- لكن لماذا كتاب ماركس ؟

لقد وجدت خيطا طويلا يشد كتابات كثيرة ، ويجمعها جميعا موضوع واحد هو : **اليهود كمشكلة** فى العالم كله ، حتى ليبدو أن العالم بأسره يعانى من هذه المشكلة . وقد نعجب . لكن لماذا العجب ؟ ألسنا نعانى منهم نحن أنفسنا ؟ ألم يصبح اليهود مشكلة بالنسبة لنا نحن أيضا حتى بتنا نفكر ما الحل ، وكيف الخلاص ؟

❄ ❄ ❄

ومن قبل ، فى تاريخنا الإسلامى ، كان اليهود مشكلة وأى مشكلة ! عانى منهم الرسول كثيرا ، ونزلت فيهم وعنهم سور كثيرة ، وآذوا

المسلمين كثيراً ، وأثاروا فتنة كبرى ، وأشاعوا فى ديننا ما يسميه رجال الفقه **بالإسرائيليات** .

* * *

لهذا كان لابد أن نحيط علما بالمشكلة اليهودية ، ونعرف تاريخها ، ونتعرف إلى رأى الآخرين فيها ، والحل الإسلامى لها .. وكل شئ عنها ؟

هذا من جهة .. لكن لماذا وجهة نظر **ماركس** بالذات ؟

ربما لأنه الوحيد الذى يتناولها بشكل علمى كمسألة ، والذى يعرض لجوانبها كموقف لا كتاريخ ، ويتصدى لها بالعلم لا بالتحيز . فالذى يعجبنى فى مقال ماركس منهجه الديالكيتكى ، وليس النتيجة التى يتوصل إليها ، بمعنى أنه يتناول المسألة اليهودية بالتحليل الجدلى ، كموقف متعين بالزمان والمكان اللذين تناولها فيهما ، فالنتيجة مرتبطة بزمانه ومكانه ، وليست نتيجة أزلية ، أما المنهج الجدلى فهو وسيلة علمية منطقية ، صالحة لكل زمان ومكان . وأنا أترجم ماركس لمنهجه الجدلى ، الذى إذا استخدمناه لمناقشة هذه القضية ، وأى قضية ، لتوصلنا إلى تحليلها الصحيح فى زمنها ومكانها ، كموقف .

لكنى عندما أتصدى لها ، لابد أن أحيط بجوانبها ، أى أن أدرسها فى التاريخ ، ثم أدرسها كموقف لآخرين ، وأخيرا أدرسها كموقف

يحتوينى أنا ، بمعنى أنى أتناولها تاريخيا ، ثم أتناول تحليل الآخرين لها كمواقف بالنسبة لهم ، ثم أتناولها كموقف يحتوينى كمصرى أو كعربى ويحتوى اليهود .

والواقع أنى لا أجد فترة من فترات التاريخ لم يظهر اليهود فيها كمشكلة . خذ التوراة ، وهو كتاب يضم تقارير عن فترات من التاريخ ، تبدأ من خلق آدم ، حتى قبل ظهور المسيح . والتوراة حافل بالقصص التى تظهرهم كمشكلة لغيرهم من الشعوب القديمة : المصريين ، والكنعانيين ، والفلسطينيين ، وعماليق ، والموابيين ، والبابليين ، والفرس ، والرومان . وبعض التاريخ الرومانى والمسيحى حكايات حولهم كمشكلة ، سرعان ما تنتقل لعرب الجزيرة ، وسرعان ما يظهرون أنفسهم كمشكلة للمسلمين . ويدور التاريخ دورة سريعة وتنتقل المشكلة لأوروبا وتبرز فى ألمانيا بالذات ، ثم يدور التاريخ دورة لا تكاد تذكر ، ولكنها تكفى ، ليظهروا على المسرح من جديد ، كمشكلة ولكن فى منطقة الشرق الأوسط .

وألاحظ أنهم على كل مسرح ظهروا عليه لم تجد الشعوب مِن حل لمشكلتهم إلا الحرب والقتال . ولقد حدث أن تصور المسلمون يوما أن بالإمكان أن يعايشوهم فى سلام فيما يشبه الآن التعايش السلمى ، فى المدينة وحول أرباضها ، وسرعان ما تبدد وهمهم ، ولم يكن هناك

من حل لمشكلتهم سوى قتالهم .

* * *

وإذا جاز لنا أن نستخدم ديالكتيك هيجل ، لقلنا : فى تصورى أن القضية كانت دائماً المال وسيطرة اليهود وجشعهم والربا والخيانة ، وأن نقيض القضية هو رد فعل الشعوب ، ومركب القضية والنقيض هو حركة التاريخ المتدافعة عبر كل هذه الأزمان والأمصار . وليس قيام إسرائيل إلا من قبيل مركب القضية والنقيض ، ولكن التاريخ متحرك ، و تحكمه الصيرورة ، والمركب الجديد يتخلّق من النقيض ، والنقيض لإسرائيل تشريد الشعب الفلسطينى . ومامعنى التشريد ؟ فى رأى توينبى أن الدولة عندما تقوم ، ويكون على تخومها خوارج يدقون أبوابها ويهاجمونها باستمرار ، لابد أن تنهار الأبواب ويغزوها الخوارج وتسقط الدولة . هكذا يعلمنا التاريخ ، وهكذا سقطت الإمبراطورية الرومانية بسبب وجود الخوارج الجرمان على تخومها . ولقد قامت إسرائيل لتستوعب يهود العالم وتحل المسألة اليهودية . ولكن المسألة اليهودية لم يحلها قيام إسرائيل ، بل خلق قيام إسرائيل تناقضات داخل إسرائيل ، وخلق - **المسألة الفلسطينية** . العالم اليوم لم يعد يعرف يهود مضطهدون ، ولكن فيه يهوداً عنصريين وحركة يهودية عنصرية ، وعرباً مضطهدين وشعباً مشرداً وأراض محتلة .

ولسنا نعرف إلا القليل عن تاريخ اليهود قبل الدولة الرومانية ، ولا توجد إلا أقل الآثار التى تتناول أو تذكر شيئاً عن اليهود قبل الدولة الرومانية . ولم نعرف أنه كانت لهم دولة إلا من كتاب التوراة . والتوراة اليهودية ، أى هذه التوراة الموجودة فى أيدينا اليوم ، كتبها من يسمى عزراً الكاهن ، الذى ورد ذكره فى القرآن تحت اسم **عزير** ، حيث يقول القرآن « **وقالت اليهود عزير ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم** ، يضاهئون الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنّى يؤفكون » (سورة التوبة الآية ٣٠)

ويقول اليهود إن عزيراً جمع التوراة بعد موسى بألف عام . والتوراة اليهودية مجموعة حكايات ونواه ، هدفها : **تعزيز قومية اليهود ، ونهيهم عن الاختلاط بغيرهم ، وتأكيد تفوقهم على بقية البشر .**

هذه أهداف عزرا الكاهن أو عزير ، **فالتوراة كتاب وطنى ، أو كتاب فى التربية الوطنية لليهود** . ونحن لا نثق بأقوال عزراً أو عزير ، لأسباب سنوردها فيما بعد ، ولا يمكن أن نعتبر التوراة الحالية هى الكتاب الذى أنزل على موسى النبى ، لأن التوراة الحالية عبارة عن أسفار خمسة تنسب لموسى ، وأسفار غيرها لمرحلةٍ بعد موسى .

والأسفار التى تنسب لموسى يكثر بها الخلط التاريخى ، فهناك أحداث تشتبك بأحداث تقع بعدها بمئات السنين ، ولا ذكر للملوك بأسمائهم ، ويقال إن الإسرائيليين ظلوا بمصر ٤٠٠ سنة ، ولكن الآثار المصرية تخلو تماماً من أى ذكر لهم ، وخاصة آثار الأسرات ابتداء من الرابعة عشرة إلى التاسعة عشرة ، ولا نعرف عنهم شيئاً إلا ما ورد فى **لوح مرنبتاح** الشهير . وكان مرنبتاح الإبن الثالث عشر لرمسيس الثانى ، وتغنى شعراء مصر أيامه بانتصاراته ، ولأول مرة يأتى ذكر كلمة إسرائيل ، فى نص مصرى ، فى اللوح الذى اكتشف وأطلق عليه اسمه ، والذى يشيد بتخريب جيوش الملك لإسرائيل .

مع ذلك يقال إن دولتهم هذه المزعومة فى التاريخ القديم دمرت ثلاث مرات ، فى المرة الأولى على يد **سرجون الثانى ملك أشور** نحو سنة ٧٣٠ ق . م ، وفى المرة الثانية على يد ملك بابل **نبوخذ ناصر** سنة ٥٩٧ ق . م ، وفى المرة الثالثة على يد الإمبراطور الرومانى **بومباى ثم تيتوس**[١] . وبعدها ولّوا الأدبار هربا من الرومان ، وارتحلوا شرقاً إلى الأناضول وفارس والروسيا .

ويقول **ديورانت** إنهم استبعدوا عن الوظائف فى فارس ، ولكننا نلاحظ أن الوظائف كانت محرمة على سواهم إلا طبقة النبلاء من

(١) Abbot : Israel in Egypt, p . 43 . - Baron : Social and Religious History of Jews - Will Durant : The Story of Civilization, The Age of Faith p . 34 .

الفرس ، وإذاً لم يكن هناك اضطهاد لهم ، بل إن الفرس سمحوا لهم بإقامة شعائرهم . واشتغلوا فى العراق بالتجارة ، ولكنهم قلبوا التجارة من حرفة وسيطة شريفة إلى مهنة يسودها الربا وتعرف الاحتكار ، ومن ثم جنوا الأموال الطائلة وحازوا الأملاك وتضاعف عددهم بسرعة فقد كانت قوانين فارس تبيح تعدد الزوجات ، والشريعة اليهودية تبيح تعدد الزوجات لأربع زوجات ، ومن ثم تكاثروا وهاجروا إلى سوريا ، وإلى الجنوب ، إلى شبه الجزيرة العربية ، وإلى الغرب إلى كل بلاد البحر الأبيض . وشغلوا مناطق بأكملها مثل خيبر ، وكان عددهم فى يثرب قدر عدد العرب ، وبشّروا باليهودية ، وعبروا إلى الحبشة وتزايدوا حتى قيل إنهم بلغوا سنة ٣١٥ م نصف عدد سكان الحبشة كلها ، وتميزت طريقتهم في الحياة ، فهم لا يشترون ، كما يأمرهم التالمود ، إلا من اليهود ، ولا يقبلون على لحم لدى جزار غير يهودى ، ويقرضون المال بالربا لغير اليهود ، وسكنوا أحياء خاصة بهم أُطلق عليها اسم **الجيتو** Ghetto ، وكانت أول تسمية لها فى إيطاليا ، لأنهم كثروا فى إيطاليا حيث كان المال والتجارة فى مدنها القديمة ، والجيتو هو حى اليهود . واتهمهم البابا إنوسنت الرابع سنة ١٢٤٧ م بخطف أطفال المسيحيين وذبحهم كمايدعوهم التالمود . وكانت أكبر مؤامراتهم على المسيح . وانقسم العالم إلى مسيحيين ويهود ، ورأى اليهود فى المسيحيين أكبر أعدائهم ، وكان

المسيح رمزهم فأنكروا وجوده إطلاقا ، وسيطروا على وسائل النشر ، وشجعوا كل كتاب ينقض المسيحية ، ولعل قضية نيتشه معروفة ، ولم يحدث أن نشرت دار نشر كتب نيتشة أو ترجمتها إلا وقام بها اليهود . وكان نيتشه عدو المسيحية رقم ٢ بعد اليهود ، حتى اتخذه النازى رمزاً لعدائهم للمسيحية ، واتخذوا الصليب المعقوف رمزاً لدولتهم متناقضاً مع الصليب .

ومن الغريب أن يؤله اليهود والنازى **نيتشه** ، وكان الاثنان يعاديان المسيحية فاتخذاه حصاناً لهما ، وإن كان لكلٍ أسبابه . وكره المسيحيون اليهود لعداء اليهود للمسيحية والمسيحيين ، وكرهت الشعوب اليهود لأنهم ما كانوا ينتمون إليها فانتماؤهم للمال ، وثار الناس فى إنجلترا على اليهود سنة ١٢٥٧ ، وكانت ثورة من لا يملكون ضد من يملكون ، أو ثورة المستغَلّين ضد المستغِلّين ، واجتاحت الثورة عليهم مدن لندن وكانتربرى ونورثامبتون ومانشستر وورستر ولينكولن وكامبريدج ، وكلها مدن تجارية وصناعية حيث تتمثل سيطرة اليهود على أرزاق المجتمع الإنجليزى . ونهب المتظاهرون بيوت اليهود ودمروا وأحرقوا حجج الملكية والكمبيالات، الأمر الذى يدلنا على جوهر التمرد ضد اليهود، وأنه تمرد ضد الاستغلال والربا والمتاجرة بالمال .

وهل هناك أروع من تصوير شكسبير لوضعية اليهودى وعدوانيته

الاستغلالية فى « **تاجرالبندقية** »[1] ، أو من تصوير مارلو المعجز فى « **يهودى مالطا** »[2] ، أو من تصوير ديكنز المبدع الفنان فى « **أوليفر تويست** » ، ولعل ديكنز دونهم جميعاً يبلغ حد الروعة وهو يرسم فى تفاصيل دقيقة انحطاط الروح اليهودية وماديتها المسرفة وابتعادها الموغل عن كل القيم الأخلاقية السائدة ، واستغلالها البشع للعمال والكادحين ، و حتى الأطفال ، فالأدب كشفهم والمسرح عرّاهم ، وبالأدب والمسرح بدأت مرحلة وعى الشعوب وتنبه الغافلين .

وقابل اليهود ذلك بمحاولة إخفاء معالم اليهودى ، ليضيع فى الزحام ، وبدأت حركة علمانية يهودية تطالب اليهود بالتخلى عن القفطان والطاقية اليهوديتين ، وقص اللحية ، والتزيى بالزى المدنى للناس ، والتسمية بأسمائهم ، وترك الجيتو ، ولكنهم كانوا يُعرَفون رغم ذلك ، لأنهم وإن تخلّوا عن المظهر إلا أنهم لم يتخلوا عن المخبر ، عن السلوك ، فكانوا يعرفون بالسلوك ، ومن ثم بدأوا يفكرون بطريقة أخرى .

وانتشرت بين اليهود الدعوة إلى التخلى عن الدين اليهودى واعتناق المسيحية وأديان الشعوب التى يحيون بينها ، ومن ذلك أن

---

(١) The Merchant of Venice .

(٢) Marlowe : The Jew of Malta

ترجمة عبد المنعم الحفنى : منشورات البرنامج الثانى بالإذاعة المصرية سنة ١٩٦٢

عبد الله بن سبأ صاحب الفتنة الكبرى فى الإسلام ، كان يهودياً اعتنق الإسلام ، وظل مخلصاً لدينه الأصلى يبث رموزه وأصوله فى الإسلام ، حتى أن علىّ بن أبى طالب أحلّ دمه وتبرأ مما يدعو إليه المسلمون . ومن ذلك أيضاً أن والد **كارل ماركس** اعتنق المسيحية وتزوج مسيحية ليحل أزمته نهائياً مع المجتمع الألمانى المتدين . ومنه أيضاً أن « **برونو باور** » دعا اليهود الألمان للتخلى عن يهوديتهم باعتبارها النواة التى يتخلق حولها الأسلوب اليهودى فى الحياة . ولكن اليهود بدأت تقوى لديهم ، أقول تقوى ولا أقول تظهر فكرة العودة لفلسطين حيث كانت لهم ، فيما يزعمون ، دولة فى يوم من الأيام ، ليعيشوا هناك بأسلوبهم ، داخل حدود دولتهم المزعومة ، والتى يدّعون أن الله وعدهم بأن تكون حدودها من الفرات إلى النيل ، وهو ما عرف فيما بعد باسم **الحل الصهيونى** .

* * *

ولا نعرف الأصل التاريخى لليهود . من هم هؤلاء اليهود ؟ أية سلالة أو جنس يمثلون ؟ من أين قدموا ؟ لا يوجد شئ علمى عنهم . كل مانعرفه دينى . واليهود من الأمم البائدة . بل إنه لا دليل على قيام دولة لهم ، ولا يتحدث عن هذه الدولة المزعومة إلا كتابهم التوراة . وليست التوارة هى التوراة التى يتحدث عنها القرآن حينما يقول « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين

هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » (سورة المائدة الآية ٤٤) . وأما الزبور فيرد ذكره فى القرآن حيث يقول « وآتينا داود زبورا » (سورة الإسراء الآية ٥٥) . ويقول اليهود إن كتاب داود هو المزامير ، وأن الزبور هو المزامير ، ولكن المزامير لا يمكن أن تكون زبور داود ، فالزبور كتاب الله ، وأما المزامير فهى أناشيد ، بعضها مسروق من أناشيد أخناتون ، وبعضها يطفح بالأوصاف الجنسية الفاضحة التى تفصح عن هوس جنسى هو داء يصيب الإنسان ولا يمكن أن يكون مصدره الله . وإذا كان عزراً أو عزير هو الذى دوّن التوراة أو أسفار موسى الخمسة ، بعد ألف عام من نزولها ، فليس من المعقول ألا يتناولها التغيير وخاصة بعد كل هذا التاريخ المخزى المذل ؟ ولا يعقل أن يكون كتاب مثل نشيد الأنشاد ، وهو كتاب جنسى فاضح ، سفرا من أسفار التوراة منزّلا من عند الله .

وينفعل الكاتب الإنجليزى هـ . ج ويلز بالتوراة فيقول بغضب إن أسفار حزقيال ودانيال وإستر وهوشع ممن يعتبرهم اليهود أنبياء ، ليست أسفاراً دينية ، ولكنها أسفاراً وطنية ، وليس حزقيال ودانيال وغيرهما أنبياء بالمعنى اللاحق ، ولكنهم ساسة ووطنيون ، ولذلك لا يمكن أن نعتمد على التوراة كمصدر تاريخى علمى لأصل اليهود الإثنولوچى ، ولكنه يصلح تفسيراً لغلّوهم السامى ولسعيهم

لإنشاء وطن قومى ، و ينبغى أن نفهم من أول الأمر أنه لا يوجد فى التاريخ ما يشهد على صدق التوراة اليهودية ، وما يقوم دليلا على أن أحداثها قد وقعت فى يوم من الأيام .

وتزعم التوراة : أن اليهود كانوا إثنتا عشرة عشيرة خرجت من صلب النبى يعقوب ، فأولاد يعقوب إثنا عشر ولدا أو سبطا ، ومن هؤلاء خرج الشعب اليهودى .

كما تزعم التوراة : أن اليهود يبدأ تاريخهم بخروجهم من مصر ، وتصور موسى بطلا قومياً ومؤسس دولة ، وتقول إنهم حاربوا القبائل التى تسكن المنطقة من سيناء مصر حتى جبل حرمون فى سوريا ، ومن الأردن حتى سواحل فينيقيا ، وأن يشوع بن نون خليفة موسى عزز فتوحاتهم وأرسى دعائم الدولة .

وتزعم التوراة أن الله قد وعد اليهود فى سفر التكوين أن يعطيهم الأرض من النيل إلى الفرات ، حيث يخاطب الرب **إبراهيم** فيقول : لنسلك أعطى هذه الأرض ، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ..(سفر التكوين الإصحاح الخامس ص ٢٣) . واتخذت الحركة الصهيونية هذه العبارة أساساً لحدود دولة إسرائيل الحديثة ، ونقشتها على أبواب الكنيست (برلمان إسرائيل) . وهذا هو الأساس الدينى الذى تستند إليه الحركة الصهيونية ، وهى كأى حركة عنصرية تستند

إلى أصول غيبية ، فحيث ينعدم التفكير العلمى ويقصر المنطق يتقدم التفسير الغيبى لما هو ليس بمعقول ، لكى يقوى به عزم الأتباع ، وتؤصل بواسطته الرغبة والإرادة فى إنشاء وطن قومى . ولسنا نجد شبيها لذلك إلا فى **الحركة الفاشية أو النازية** ، عندما تستند على دعوى بالتفوق العنصرى ، أو بالاختيار من لدن اللّه ، أو بحمل أعباء رسالة تنفرد بها عن بقية شعوب العالم .

* * *

فلماذا سُمّى اليهود بالساميين !

الساميّة نسبة إلى سام . وسام كما تدّعى التوراة هو الابن الأكبر لنوح ، وكان سام أول إنسان يباركه اللّه بعد طرد آدم من الجنة . وتدعى التوراة أن اللّه اختاره دون إخوته لهذه البركة ، **وكانت هذه الفرية أول فرية عنصرية** ، وتروى لها التوراة قصة وأى قصة !

تروى أن نوحاً كان له ثلاثة أولاد ، هم **سام وحام ويافث** ، فلما انتهى الطوفان واستقر نوح على اليابسة « ابتدأ فلاحا وغرس كرما وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه ، فأبصر حام ، أبو كنعان ، عورة أبيه ، وأخبر أخويه خارجا ، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء ، وسترا عورة أبيهما . فلما